المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية.
المجلد 09 العدد 01 – جويلية 2023
ر.ت.م.د: 2437-0797
ر.ت.م.دإ: 2600-6782
الإيداع القانوني: 2015-6799
النشاط الزراعي في عمان خلال الحقبة (3-6 هـ / 9-12 م) ص 133-152

صحراء الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العصر الحديث

The Algerian Sahara according to Maghreb travels during the modern period

أ.د. بوشنافي محمد
جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس-
bouchenafi22@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2023/05/07 تاريخ القبول: 2023/06/24 تاريخ النشر: 2023/07/30

Abstract:

Algeria during the Ottoman period was a transitory area for different races of people; it housed the ulamas, consuls, prisoners of different nations and anyone seeking a better life. Many of these arrivals were impressed by Algiers and its people, so they wrote up their observations and impressions. Among them were the Moroccans who passed through the Algerians lands to go to the seine land, some of them crossed the Sahara road which began with the oasis of Touat to the Tunisian borders, and during this long journey they wrote everything they coincided or things that caught their attention.

We are going to approach in this article the life of the Saharan society during the ottoman period based on the writings of this pilgrimage trips during the 17th and 18th century.

Keywords: Money; pilgrimage; sandstorm; the marabouts; the epidemics; Biskra; Sidi Okba; Touat.

الملخص:

خلف لنا رحالة العهد العثماني رصيدا ثريا من المعلومات التي شملت كل مجالات الحياة، والتي كانت نتاج ملاحظاتهم واحتكاكهم بالمناطق التي زاروها أو مروا عبرها. ولم تكن الجزائر التي

ألحقت بالدولة العثمانية منذ مطلع القرن السادس عشر بمنأى عن ملاحظات هؤلاء الرحالة، خاصة وأنها أضحت منطقة جذب لمختلف الأجناس من أوربيين وعثمانيين وغيرهم، والذين توافدوا عليها لأهداف وغايات مختلفة، فكان منهم العلماء وطالبي الوظائف والأسرى والقناصل، كما كانت منطقة عبور لكثير من الناس، وخاصة المغاربة الذين كانوا مضطرين إلى المرور عبر الأراضي الجزائرية، إما عند توجههم لأداء فريضة الحج أو القيام برحلات سفارية أو علمية، فكانوا يسلكون طرقا معروفة، سواء عبر المناطق التلية أو الصحراوية، وخلال ذلك سجلوا ملاحظاتهم وانطباعاتهم عن المناطق التي مروا عبرها وعادات وتصرفات سكانها، ولهذا أضحت هذه الرحلات مصادر جد هامة للدارسين والباحثين لا يمكن الاستغناء عنها في دراسة الجزائر خلال ذلك العهد. سنحاول دراسة مجتمع الصحراء الجزائرية وبيئته اعتمادا على ما خلفه لنا هؤلاء الرحالة المغاربة من انطباعات وملاحظات.

الكلمات المفتاحية: الأولياء والأضرحة؛ اللصوصية؛ الآبار والأودية؛ الكرامات؛ العملات؛ العياشي؛ سيدي خالد؛ عين ماضي؛ وركلا؛ المثقال؛ الطاعون.

مقدمة:

يكتسي فن الرحلات أهمية كبيرة وينطوي على فوائد جمة، ولهذا أولاه البشر اهتماما خاصا منذ القدم وإلى يومنا هذا، وتكون هذه الرحلات لأسباب عديدة ومتنوعة، كما نجد منها الرحلات الاضطرارية التي ترتبط خاصة بظروف الأمنية والرحلات الاختيارية، وإضافة إلى ذلك هناك الرحلات الفردية والرحلات الجماعية التي تكون في شكل هجرات بشرية.

وإذا عدنا إلى موضوعنا، أي صورة الصحراء الجزائرية من خلال رحلات المغاربة خلال الفترة الحديثة من تاريخ الجزائر، يمكننا أخذ صورة واضحة عما كان عليه حال المنطقة آنذاك، فهي تقدم لنا معلومات جد هامة عن جوانب كثيرة من الواقع المعيشي وكذا حول الجوانب التاريخية

والجغرافية والعلمية والفقهية والاقتصادية والاجتماعية وما تعلق بالعادات والتقاليد التي سجلها هؤلاء أثناء تجولهم في هذا المجال الجغرافي الواسع. يدفعنا ذلك إلى طرح التساؤلات التالية: كيف نظر أصحاب هذه الرحلات إلى مجتمع الصحراء الجزائرية خلال تلك الحقبة؟ ماهي الأهمية التي اكتسبها طريق الحج بصحراء الجزائر؟ ماهي المناطق التي كان يمر عبرها هذا الموكب؟ وماهي الصعوبات والأخطار التي اعترضت طريقهم؟ وللإجابة على هذه التساؤلات اعتمدنا على مجموعة من الرحلات تتمثل في رحلة العياشي (ت 1090 هـ) التي انطلقت في الأول من ربيع الثاني 1072هـ/1661م، وكذا رحلة الحضيكي (ت 1189 هـ) التي كانت خلال القرن الثامن عشر، والدرعي (ت 1239هـ/ 1823م) والتي انطلقت من الزاوية الناصرية بتمقروت يوم الخميس الثالث من جمادى الثانية 1196هـ/ 16 ماي 1782م.

أ– الأخبار التاريخية:

أولت هذه المصادر اهتماما كبيرا للجانب التاريخي، وخاصة ما تعلق بتراجم الأولياء الصالحين والعلماء ورجال الحكم وغيرهم، وأخبار الأماكن والآثار والأضرحة والمزارات، فلا تخلو منطقة مر عبرها الركب إلا ويقدم لنا هؤلاء معلومات تاريخية حولها.

تحمل هذه الرحلات في طياتها تعريفا لكثير من الرجال الذين احتضنتهم صحراء الجزائر، وهذا يمكننا من وضع موسوعة لهؤلاء، فمثلا يفصل الحضيكي في شخصية خالد بن سنان التي أثارت جدلا كبيرا بين المؤرخين، فيذكر في هذا الموضوع رأيين[1]:

– الرأي الأول: يقول عنه أنه "نبي الله خالد بن سنان (خالد بن سنان العبسي، حكيم من أنبياء العرب في الجاهلية، يدعو الناس إلى دين عيسى عليه السلام".

– الرأي الثاني: يقول أنه من رسل عيسى عليه السلام، الذين أرسلهم ليبلغوا رسالته فقتلوه، ودفن هناك". وهنا تجدر الإشارة أن العياشي ذكر هذه الشخصية في رحلته خلال القرن السابع عشر حيث أرجع اكتشاف قبره إلى العالم عبد الرحمن الأخضري في مطلع القرن السادس عشر[2]، إذ – حسبه– لم يكن معروفا من قبل ولم يرد ذكره في أي مصدر متقدم، ولكن ورد ذكره في مصادر متقدمة ربما لم يطلع عليها العياشي.

زار الحضيكي كذلك ضريح الفاتح عقبة بن نافع الفهري، فنجده يطنب في الحديث عن هذه الشخصية معتمدا في ذلك على مصادر متقدمة مثل كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر لعبد الرحمن بن خلدون[3]. وفي أعلى مئذنة مسجد سيدي عقبة –هناك مائة وأربعة وعشرين درجا للوصول إلى أعلى المئذنة– وجد عمود يزعم الحجاج "أن من تمسك بذلك العمود وحركه وقال: أقسمت عليك أيتها المئذنة بحق سيدي عقبة إلا ما تحركت فاهتزت"[4]، وإذا كان كثير من الرحالة يؤكدون هذه الرواية، فإن العياشي ينكر ذلك ويرجع اهتزاز العمود إلى طول البناء[5].

كما يرد في هذه الرحلات ذكر لبعض أماكن العبادة كالمساجد والزوايا والأضرحة، التي كان الناس يلجئون إليها للتبرك والدعاء، فمثلا بمنطقة النخيلة [6] وجد مسجد يزوره الناس من كل الأنحاء وكذا الرجال الصالحين[7].

ب– الأخبار الجغرافية:

1–الماء: اهتم الرحالة المغاربة بالمجال الجغرافي للمناطق التي مروا عليها، فسجلوا عنها معلومات هامة ودقيقة، حيث عرفوا بها وبخصائصها ومميزاتها، ولعل أهم ما كانوا يركزون عليه قضية الماء في هذه الصحراء القاحلة وباعتباره مادة حيوية لا يمكن الاستغناء عنها خلال أسفارهم.

تحدد لنا هذه المصادر بدقة متناهية المناطق التي يكثر فيها الماء والعكس، وكذا طرق الحصول عليه ونوعيته، خاصة وأن الرحلة كانت تدوم أشهرا عديدة يعتمد فيها الحجاج على الآبار الموجودة بالطريق في شربهم وشرب دوابهم وغيرها. تمكننا هذه الرحلات من وضع خريطة تقريبية لأماكن تواجد المياه، فمثلا عند حديثه عن بسكرة يذكر ناصر الدرعي أنها تتوفر على مياه عذبة "وداخل بسكرة آبار كثيرة عذبة، منها في الجامع بئر لا ينزف"[8]، كما يخبرنا عن تلك البئر الموجودة ببوسمغون فيقول "وأصبحنا على البئر الذي بخنق أم القرار الغربية –مغرار حاليا–، وسقينا دوابنا"[9]، أما عن منطقة بورزق —جنين بورزق حاليا– فيقول "ثم ظعنا يوم الأربعاء، وبلغنا أبا رزق، وجلسنا حتى روت الإبل، واستقى الناس الماء، وصلينا الظهر، وبه عين عذبة غزيرة، وعليها نخيل ملتفة وآثار عمارة داثرة"[10]، ويواصل الدرعي حديثه عن الماء في الصحراء حيث يقول عن مياه منطقة عين ماضي "وماؤهم طيب بارد، وعينهم خرجت من سفح جبل، ودخلت للجنات"[11].

ويذكر العياشي أن سكان ورقلة —وركلا– كانوا يحفرون آبارا وبمجرد الحفر لمسافة قصيرة يفيض الماء[12]، وعندما يتطرق لمنطقة وادي سوف فيقول بأن ماءها "طيب غزير قريب من وجه الأرض" لدرجة أن النخيل التي يغرسونها لا تسقى أبدا[13]، وربما هذا ما نلمسه في أيامنا هذه لما أضحت وادي سوف منطقة زراعية بامتياز لوفرة الماء، وكذا ما تعانيه من مشكلة صعود المياه فوق سطح الأرض.

نستخلص مما سبق أن صحراء الجزائر كانت تتوفر على مياه وفيرة عذبة، وأن هناك أناس حفروا آبارا عديدة على الطرق التي يمر عبرها ركب الحجاج وغيره وأوقفوا عليها الأوقاف للاعتناء بها وترميمها كل ما دعت الضرورة إلى ذلك، وهذا يرتبط بأعمال الخير التي كان يبادر بها

المحسنون، كما يمكننا أن نؤكد بأن السلطات والسكان أولوا الماء أهمية خاصة من خلال البحث عنه وإيصاله إلى منازلهم بشق القنوات وبناء الخزانات. وظاهرة الاهتمام بالماء ميزت الجزائر خلال العهد العثماني فكان توفيره وإيصاله إلى السكان مع المحافظة على نظافته من أجل الصحة العامّة من اهتمامات الإدارة المحلية، ولهذا عينت مجموعة من الموظفين يسهرون على ذلك يرأسهم قائد العيون، كما كان تخريب قناة للماء كثيرا ما يؤدي إلى إعدام فاعله، أما لمس قناة عمومية وتلويث مائها فقد تصل عقوبتها إلى حدّ قطع اليد[14].

تتحدث هذه المصادر كذلك عن أودية الصحراء ونظام جريانها، خاصة وأن المنطقة معروفة بعدم انتظام تساقطها، حيث يمتد فصل الجفاف لفترة طويلة، مما يؤثر على جريان هذه الأودية، يقدم لنا الحضيكي وصفا لبعض أودية الصحراء الجزائرية، فمثلا عند حديثه عن وادي الناموس يقول "وادي يجري من المنحدرات الجنوبية لجبال الأطلس ويتجه نحو الصحراء"، وهو نفس الاتجاه الذي يسلكه وادي غسران[15]، الذي يذكره الورثلاني باسم غزران على وزن عمران ، ويقول أنه واد جار[16]، أما وادي الشبور —الأشبور عند العياشي– فهو "واد كبير جار بالماء صيفا وشتاء"[17].

وإلى جانب الحديث المفصل عن الماء كمصدر للحياة، تطرقت مصادرنا إلى وصف المناطق العمرانية التي مرت عبرها لأنها شكلت أماكن للراحة واسترجاع الأنفاس، وكذا التزود بما يحتاج إليه ركب الحج من مؤن ودواب وغيرها لمواصلة الطريق، فيعطينا العياشي وصفا لمدينة وركلا —ورقلة– حيث يقول "فإذا هي مدينة لها سبعة أبواب، وهي في وسط خط من النخيل... محيط بها خندق مملوء ماء من كل جهاتها، لا يصل أحد إلى سورها إلا من ناحية الأبواب"[18]، غير أنه لا يعطينا أسماء هذه الأبواب ما عدا بابا واحدا، إنه باب السلطان الذي ربما يكون المدخل الرئيسي للمدينة والموجود في جنوبها[19]، أما عن سبب حفر الخندق فيرجعه إلى الهجمات التي كانت تتعرض لها وركلا بين الحين والآخر من قبل القبائل القاطنة بالمنطقة، وهنا تجدر الإشارة أن هذه المناطق كانت عرضة لهجمات القبائل من أجل السطو والنهب، وقد يرجع ذلك إلى انعدام

سلطة قوية تقمع هؤلاء وكذلك إلى حالة الفقر الناتجة عن بيئة المنطقة القاحلة. كما يتطرق العياشي إلى سوفا –وادي سوف– حيث جلب انتباهه كثرة الرمال بها حتى أصبحت يضرب بها المثل في ذلك[20].

كما كانت منطقة عين ماضي إحدى محطات التوقف للحجاج، ولهذا نالت حقها من الوصف، فيقول عنها الحضيكي "ونزلنا بقرية يقال لها عين ماضي فيها أجنة تين وعنب، محفوفة بالحوائط والزروب، وللقرية كذلك سور ممنوع"[21]. كما يقدم لنا صاحبنا وصفا لمنطقة الأغواط التي شكلت أهم منطقة عمرانية بالصحراء الجزائرية آنذاك لكثرة عمرانها وكذا لحيوية أسواقها فيقول عنها "قرية ذات نخيل، ومياه وفواكه"[22]، غير أن وصف الدرعي للمدينة كان أكثر دقة من السابق حيث يقول عنها "والأغواط هذه بلدة واسعة، ذات الأراضي الواسعة بها محاريث كثيرة، وفواكه متنوعة، غير أنها كثيرة الرياح والرمال"[23].

وإضافة إلى ما سبق ذكره نجد في هذه الرحلات وصفا لبسكرة، التي تتفق المصادر على تراجع دورها وعمرانها بسبب ما لحقها من دمار وأذى نتيجة تنافس الأتراك والقبائل العربية عليها وتوالي غاراتهم عليها مما اضطر الكثير من سكانها إلى هجرها والإقامة في أحوازها، لقد دفع هذا الوضع العياشي إلى وصفها في القرن السابع عشر بقوله "إلا أنها ابتليت بتخلف الترك عليها وعساكر الأعراب يستولي عليها هؤلاء تارة، وهؤلاء تارة، إلى أن بنى الترك عليها حصنا حصينا على رأس الماء الذي يأتي عليها، فتملكوا البلاد وضروا بأهلها وأجحفوا بهم في الخراج، ولم يقدروا على الخروج عليهم لتمكنهم من الماء الذي به حياة البلد وأهله، فاجتمعت عليها غارة العرب من خارج وظلم الترك من داخل، وقد أشرفت على الخراب، وقاربت أن تكون يبابا لولا ما تأثل من أسباب عمرانها الموجبة لرغبة الناس في سكناها"[24]، ويتفق الدرعي الذي زار المدينة في القرن الثامن عشر مع العياشي، أي أن المدينة لم تعرف أي تحسن، ونستشف ذلك من قوله "إلا أنه قل عامروه، وضعف ساكنوه، فلا ترى فيه مدرسا ولا [فقيها] ولا قارئا، مع أن هذه المدينة من أعجب المدن وأجمعها لمنافع كثيرة، مع توافر أسباب العمران فيها، قد جمعت بين التل والصحراء،

ذات نخل كثير، وزرع كثيف، وزيتون ناعم، وكتان جيد، وماء جار في نواحيها، وأرحاء متعددة تطحن بالماء، ومزارع حناء، إلى غير ذلك من الفواكه والخضر والبقول وكثرة اللحم والسمن في أسواقها"[25]، كما يحاول إبراز أسباب الخراب والدمار الذي تعرضت له المدينة، ودور الجنود العثمانيين في ذلك، حيث يذكر أنهم تمكّنوا من السيطرة عليها بعدما بنوا حصنا لمراقبتها، وأنهكوا أهلها بالضرائب، والذين لم يستطيعوا الثورة عليهم لتحكمهم في مصدر المياه للمدينة وسكانها[26].

ونفس الظاهرة يذكرها الورثلاني في رحلته حين يؤكد أنّ الحكام كانوا لا يولون مناصب القضاء والإفتاء إلاّ لمن يدفع الرشوة، فيذكر حينما يتحدث عن بسكرة "وقد سمعت أنّ القاضي والمفتي فيها لا يتولى إلاّ بإعطاء لهم وارتشاء لديهم (أي الأتراك) وكذا في غيرها من عمالة الجزائر"[27].

2– المراعي: تطنب مصادرنا في الحديث عن المرعى ومدى وفرة الكلأ باعتبار أن تنقل هؤلاء كان يتم على متن الدواب، وبالتالي فإن الحاجة إلى هذه المادة الحيوية يعتبر ضروريا، فكانوا يتتبعون أماكنها، يقدم لنا العياشي معلومات وافية حول هذا الموضوع، فيذكر أن كثيرا من المناطق التي مروا عبرها كانت تتوفر على مراعي واسعة تأكل منها الإبل حتى تشبع[28]، ويظهر أن تنقلهم صادف موسم تساقط الأمطار وكثرة الكلأ، ولكن لم يكن الحال كذلك في كل الأحيان فقد يصادف هؤلاء صعوبة في إيجاد مرعى، إما بسبب الجفاف أو مرور هؤلاء بأراض قاحلة لا نبات فيها أو لوجود نباتات تضر بالحيوانات عند أكلها، يذكر الدرعي أنه في منطقة تاجموت ينمو نبات يسمى الدرياس[29] الذي يضر بالإبل، وهذا ما دفع الموكب إلى محاولة تحاشي المرور عبر هذه المنطقة، غير أن سكانها أخبروهم أن هذا النبات لا ينمو في تلك الفترة من السنة[30].

3– الصعوبات: لم يكن طريق موكب الحج سهلا ومريحا حيث كانت تعترضه صعوبات جغرافية ومناخية، فمن الصعوبات الجغرافية ما يذكره العياشي من أنهم مروا بأرض صخرية سوداء اللون يصعب المشي فيها، حتى أنه شبهها بأرض المحشر، وأن نعالهم تمزقت من طبيعة الأرض

وتضررت خفاف الإبل وحوافر البغال، مما اضطرهم إلى لف أرجلهم بالخفاف والرقاع[31]. كما يخبرنا الدرعي أن صحراء وادي سيدي خالد كانت من أخطر المناطق التي يعبرها الحجاج، فلا ينجو منها إنسان ولا حيوان"وهي مفازة(صحراء أو أرض مقفرة، وسميت كذلك تفاؤلا بالفوز والنجاة) عظيمة، أرض وعرة حرشة معطشة موخفة تيهاء، وصح عند الحجيج أنها لا يسلكها ركب إلا ويضيع فيها حي: آدمي أو غيره"[32].

أما عن الصعوبات المناخية فنحصرها في اضطراب حالة الجو وطبيعة البيئة الصحراوية القاحلة، ومن ذلك أن موكب الحج الذي كان ضمنه العياشي صادفته عاصفة رملية هوجاء "حتى لا يكاد الرجل أن يعرف مساره، ولا يسمع مسامره، وسايرتنا ذلك اليوم حتى الليل، والرمال أمامنا كالسيل"[33]. أما ناصر الدرعي فيذكر أنهم اضطروا إلى تغيير مسارهم لأن الطريق المعتادة كانت شديدة البرودة وكثيرة الثلج والرياح، فتوغلوا داخل الصحراء حتى وصلوا إلى الأغواط[34].

خطر آخر كان يتهدد مواكب الحجاج بالصحراء، يتمثل في كثرة الهوام السامة كالأفاعي والعقارب، يذكر العياشي أنهم مروا على أرض تكثر بها العقارب، حتى أن الرجل الواحد منهم كان يقتل لوحده حوالي مائة عقرب "وأخذ الناس يقتلونها، فمنهم من قتل المائة فما دون...ومن الناس من يقول إن العقارب نزلت مع المطر كما تنزل الضفادع، والله أعلم بحقيقة ذلك"[35].

ج- الأخبار الاقتصادية:

يشكل الاقتصاد عصب الحياة في كل المجتمعات لارتباطه بتلبية حاجات السكان المادية، ولهذا كانت صحراء الجزائر خلال تلك الحقبة محطة لأنشطة اقتصادية متنوعة، وهذا ما نلمسه من خلال الرحلات الحجية، فهي تعطينا معلومات وافية عن كل ما يتعلق بالأنشطة الاقتصادية كالإنتاج الزراعي والأسعار والعملة المتداولة وكذا الأسواق وما بها من سلع وبضائع، وهذا لارتباطه بحاجات الحجاج للمؤونة لمواصلة السير.

1- الإنتاج الزراعي: ما تتفق حوله مصادرنا كثرة الإنتاج الزراعي وتنوعه بكل المناطق التي يمر عبرها موكب الحج، وهذا يثبت أن الزراعة شكلت نشاطا حيويا ومصدر دخل للسكان، خاصة مع توفر المقومات كالأراضي والماء، فعلى سبيل المثال كانت منطقة توات تشتهر بكثرة إنتاج التمر بكل أنواعه[36]، أما عن بوسمغون فيخبرنا الدرعي أنه أكل بها عنبا "لم أر مثله حلاوة ولا طولا"[37]، وعرفت تاجموت بكثرة بساتينها وفواكهها[38]، وتبقى بسكرة منطقة زراعية بامتياز حيث جلبت اهتمام كل من مر بها لوفرة محاصيلها وتنوعها، .وهذا ما يؤكده العياشي حين يخبرنا عن كثرة نخيلها وزرعها وزيتونها ومائها وفواكهها وخضرها والحناء واللحوم والسمن والأرحاء لطحن الحبوب[39].

2- الأسعار: من خلال اطلاعنا على هذه الرحلات أمكننا أخذ صورة عامة عن أسعار بعض المواد المختلفة المعروضة بأسواق طريق الحج ومدى تناسبها مع القدرة الشرائية للحجاج، يتحدث العياشي عن أسواق وركلا –ورقلة- ويذكر بأنها كانت محطة هامة تتوقف بها القوافل التجارية، وهذا كان له أثره الإيجابي الذي يبرز في انخفاض الأسعار، كما صادف دخولهم إلى المدينة قدوم قافلة محملة بالبضائع، فاشترى الحجاج كل ما يحتاجون إليه "فتنعم الناس في اللحم والتمر والسمن، واشترى الحجاج غنما كثيرة حتى كأنه تلك الليالي الثلاث التي أقاموها ليالي منى من كثرة اللحم"[40]، أما عن منطقة توات فيذكر أن الذهب بها رخيص وكذا الزرع والتمر[41]، وسبب هذا الرخاء أنها كانت ملتقى القوافل التجارية القادمة من تومبوكتو وبلاد السودان عامة ومن الشمال، أما الحضيكي فيخبرنا عن رخص الثياب في فقيق[42].

3- العملات: يذكر العياشي أن أهل توات كانوا يتعاملون بالمثقال –عملة إسلامية وزنها 4,25غراما- وهو يعادل قيمة أربع وعشرين موزونة[43]، وفي ورقلة كانوا يتعاملون بنقود يغلب عليها معدن النحاس[44]، وربما يرجع ذلك إلى قلة الذهب وارتفاع سعره. كما لاحظ العياشي تداول العملات الأجنبية في أسواق الصحراء، ومنها على سبيل المثال الريال التونسي

الذي يطلق عليه "الطرباقة" وكذا الدورو الإسباني[45]، وكان سكان تقرت يتعاملون بالنقود الفاسية التي يتم مبادلتها في منطقة بني جلاب[46].

4– المواد الأولية: يذكر الحضيكي أنه وجد جبل من الملح في الطريق إلى عين ماضي، بمنطقة وادي الشبور، كان الحجاج يأخذون ما يحتاجون إليه من هذه المادة[47]، كما يذكر الدرعي أنه وجد ببسكرة جبل من الملح تقطع منه قطع عظيمة، حتى أن عبد الله الشيعي وخلفائه كانوا يستعملونه في طعامهم[48].

د– أخبار اجتماعية:

تقدم لنا الرحلات معطيات وأخبار ذات علاقة بالمجتمع الصحراوي، فتعدد صفاتهم كالكرم والجود أو العكس، وكذا الجوانب الأخلاقية والتركيبة الاجتماعية للسكان، إضافة إلى العادات والتقاليد.

1– الكرم: يتفق هؤلاء الرحالة أن موكب الحج كان كلما مر بمنطقة إلا واستقبله سكانها بحفاوة وقدموا لهم أشهى المأكولات، كما كانوا يقيمون بينهم لعدة أيام لاسترجاع الأنفاس قبل مواصلة السير، فهذه الحفاوة نصادفها في منطقة الغاسول، عين ماضي، تاجموت، الأغواط، بسكرة وغيرها من المناطق الموجودة ضمن طريق الحج، يقول الدرعي عن استقبال أهل بوسمغون "ونزلنا أبا سمغون قبل الظهر ، وتلقانا أهلها على مسافة: خيولا ومشاة، شبانا وكهولا وشيوخا وصبيانا"، وكذا الحال قرب عين الصفراء "وأتوا بكثرة العنب والسمن والزرع والدقيق وسبعة رؤوس من الغنم، كثر الله خيرهم وأجزل قراهم وشكر صنيعهم آمين" [49]. أما الحضيكي فيخبرنا أن أهل منطقة الزاب خرجوا كلهم لاستقبال موكب الحج "خرج أهل البلد جلهم للقاء الركب بالرحب والتحبب... ونزلوا يلعبون بالخيل والبغال في زينتهم لإظهار السرور للترفيه عن الحجاج"[50]. ويذكر العياشي أن أهل ورقلة استضافوهم أربع ليال وبالغوا في إكرامهم[51]، وكذلك الحال بمنطقة تماسين أين استقبلهم أميرها وأحسن ضيافتهم، ولما وصلوا إلى تقرت كان سكانها يوفرون لهم كل

أسباب الراحة لدرجة أنهم كانوا يترددون عليهم بين الحين والآخر لمعرفة حاجاتهم من الأكل والمشرب[52].

2–الأمراض والأوبئة: يظهر أن البيئة الصحراوية ساهمت كثيرا في انتشار الأوبئة والأمراض المختلفة، نلمس ذلك من خلال ما ورد في مشاهدات الرحالة موضوع دراستنا، يذكر الدرعي أن سكان أم القرار (مغرار) اشتكوا لهم من الحمى التي سببت لهم الكثير من المتاعب، فما كان من هؤلاء إلا أن دعوا الله لهم بالشفاء والعافية الدائمة[53]. أما العياشي فيذكر أنهم عند عودتهم من الحج صادفهم ببسكرة انتشار وباء أودى بحياة سبعين ألف شخص –كما يذكر–، حتى أن المدينة خلت من سكانها وتدهور عمرانها وخاصة المساجد، كما أن الموكب لم يتمكن من دخول سيدي عقبة لانتشار الوباء بها "وفي الغد جئنا لبلد سيدي عقبة وتحققنا الوباء فيه، وفي البلاد التي في أطرافه وفي بسكرة، ولم ندخل لزيارته وبتنا بينه وبين بسكرة"[54].

ويظهر أن سكان الصحراء كانوا يدركون طرق التعامل مع الأوبئة والاحتراز منها، فسكان زريبة حامد استفتوا العياشي في قضية الخروج من بلدهم هروبا من الطاعون فأباح لهم ذلك "وجدناهم متحصرين أمرهم لطروق الوباء في نواحيهم، وتخوفوا أن يدهمهم في بلدهم، وعزموا على الفرار... وسألوا هل يصوغ لهم ذلك قبل وصوله إليهم أو لا... ورخصت لهم في الخروج"[55]، وأما أهل الأغواط ففرضوا مراقبة شديدة على كل الوافدين على المدينة، فمنعوا الدخول إليها على كل شخص يشك إصابته بالطاعون، حتى أنهم كانوا يبيعون الحبوب بإدلائها من فوق السور ويأخذون ثمنها بنفس الطريقة، كما كانوا لا يتعاملون بهذه النقود –الريال– إلى بعد غسلها جيدا خوفا من العدوى[56].

3– بعض الظواهر الاجتماعية: انتشرت بين أهل المنطقة ظواهر اجتماعية جلبت انتباه الرحالة وبدت لهم غريبة، ومنها على سبيل المثال أن أهل ورقلة كان إذا مات أحدهم يضعون ثيابه عند أحد أبواب المدينة، لا يمسها أحد، غير أنه لا يقدم لنا أسباب هذا التقليد[57]، أما عن أهل وادي سوف فيقول أنهم يملكون كلاب الصيد ومعيشتهم من الصيد والتمر[58]. أما

عن سكان بوسمغون فيذكر أنهم كانوا يخرجون صبيحة العيد كبارا وصغارا يحملون في أيديهم أسلحة، ثم يرمون بعضهم البعض بالحجارة، ويتواصل ذلك حتى لما يقوم الإمام إلى المنبر أو لما تقام الصلاة[59]. وفي ورقلة استرعى انتباهه أناس دخلوا المسجد وابتدروا إلى الصلاة دون وضوء وكل ما قاموا به أنهم تيمموا رغم أنه لم يكن لهم أي عذر شرعي يبيح لهم ذلك "دخل الناس للصلاة وابتدروا زوايا المسجد يتيممون،.. فقلت عجبا هؤلاء كلهم من ذوي الأعذار"[60].

4– الأخلاق: تتحدث مصادرنا عن كرم وجود أهل المنطقة، فيصف العياشي أهل تقرت بالتواضع والأخلاق الفاضلة "وهم أهل يتسمون بالتواضع والنية الصالحة والأخلاق الحسنة"[61].

هـ– أخبار أمنية:

لم يكن طريق الحج آمنا، فكثيرا ما اعترض طريقهم اللصوص وقطاع الطرق لسلبهم ما يملكون، ولهذا كانوا دائما في حالة تأهب وفي حالات أخرى كانوا يستعينون بدليل له دراية بالمنطقة حتى يجنبهم مسالك الخطر. إن أخطر جزء من طريق موكب الحجاج كان ذلك المتواجد في نواحي بسكرة حيث تكثر القبائل التي تمتهن اللصوصية والسلب والنهب:

– يذكر الحضيكي أنه غير بعيد عن سيدي خالد باغتتهم جماعة من الرجال على الخيول مدججين بالأسلحة، ولكنهم اضطروا إلى التراجع لما شاهدوا استعداد هؤلاء للقتال والدفاع عن أنفسهم، أما عن أعراب بلاد وادي غسران فيصفهم بقوله "أعراب تلك البلاد سراق قطاع ينتهبون الحجاج كثيرا، ويقطعون عليهم"[62].

– يذكر العياشي أن سكان بسكرة كانوا يتخوفون ويحذرون من غارات عرب أولاد نصر بوعكاز، وكانوا يحذرون الحجاج من غاراتهم وسطوهم"، يحاول العياشي أن يجد مبررا لامتهان هذه القبائل للسطو والنهب، فيرجعه إلى الجوع والفاقة، فلقد تجمع العرب بأعلى سيدي خالد في حوالي ثلاثمائة فارس في انتظار ركب الحجاج للهجوم عليهم، وسبب إصرارهم الجوع الذي أصابهم وأنهم كانوا مصممين على القتال بسبب ذلك[63].

– الاستعانة بالدليل: كان ركب الحج يستعين بالدليل حتى يجنبهم مخاطر الطريق، لما خرج الموكب الذي كان ضمنه العياشي من توات "اكتروا رجلا من عرب الخنافسة –فرع من قبيلة معقل الهلالية– ليدلهم على الطريق"[64]، أما الحضيكي فيذكر أنهم لما وصلوا إلى أبي سمغون اكتروا رجلا يدعى سيدي محمد المختار، حافظ لكتاب الله وجال في كثير من البلدان، أي أنه مصدر ثقة، ليوصلهم إلى الأغواط مقابل ثمن متفق عليه يقدر بمثقالين[65].

و– الأخبار الدينية والعلمية:

1– التبرك بالأضرحة: من العادات التي انتشرت آنذاك أن الحجاج كانوا لا يبادرون بالخروج إلا بعد زيارة أضرحة الأولياء والصالحين طلبا للبركة، ولا يعتبرون ذلك منافيا للدين، وكانوا كلما مروا بأحد الأضرحة يتبركون به، فهذه الرحلات تمكننا من أخذ نظرة على هذه المزارات، فيتحدث الدرعي عن الولي الصالح أبي سمغون ويختم قوله "نفعنا الله به، آمين"[66]، أما الحضيكي فيتطرق إلى ظاهرة كثرة أضرحة الأولياء ببسكرة "وهي على ما قيل بلدان الصالحين ومأواهم، وفيها سادات قبروا هناك، وزرهم تغنم، والله ينفعنا وإياك ببركاتهم"[67]. ومن أمثلة الأولياء الذين ورد ذكرهم نجد سيدي عقبة، الأخضري، سيدي أحمد بن أبي زيان بالأغواط، سيدي خالد، سيدي أبي الفضل ببسكرة، مع ترديد عبارة "رحمه الله ونفعنا به". كما كان حجاج منطقة بسكرة إذا عادوا إلى موطنهم توجهوا لزيارة ضريح سيدي عقبة فيكتبون أسماءهم على جدرانه للتبرك " اتخذوا من ذلك دينا وعادة مستمرة"[68].

2– الكرامات: تتحدث المصادر عن كرامات الأولياء والصالحين، يورد الدرعي كرامتين نسبهما لرجلين صالحين، ومنها أن أحد الأولياء الصالحين دعا على أهل قرية قرب الأغواط، فهبت ريح عاصفة أخذت القرية بما فيها من السكان وغيرهم، ولا يُعلم أين ذهبت، حيث لم يبق لها أي أثر سوى قبر ذلك الرجل الصالح[69]، أما بزريبة الوادي (بسكرة) وجد ضريح الولي الصالح

سيدي حسن الكوفي –نسبة إلى الكوفة- يزعم أهل البلد أنه طار من الكوفة، ولما شكك الناس في نسبه الشريف طار مرة أخرى إلى الكوفة وعاد بعد مدة قصيرة يحمل صكا كتب بالخط الكوفي، كما أن واديهم كان جافا فشكوا أمرهم إليه فأصبح يجري طول العام[70].

ومن الكرامات التي يذكرها العياشي أن الفضل في اكتشاف قبر النبي خالد بن سنان يرجع إلى الشيخ عبد الرحمن الأخضري "وسألت عنه من يظن به علم فلم أجد عند أحد ما يشفي ولا رأيت خبره في تاريخ ولا تقييد، وغاية ما سمعت من بعضهم أن سيدي عبد الرحمن الأخضري أخبرهم أنه شاهد النور صاعدا من تلك البقعة إلى السماء ثلاث ليال أو نحوها، وأخبر أنه قبر نبي الله خالد، فإن كان اطلع على ذلك من كشفه فيسلم له فإنه أهل لذلك"[71]، كما يتحدث عن الشيخ أبي حفص ويذكر أن له كرامات وأتباع كثر من العامة والأمراء يتبركون به، وكان يحج مع نسائه وأولاده[72].

3- الحياة العلمية: يرد في الرحلات ذكر أسماء كثيرة لعلماء عاشوا في المنطقة، حيث لا تخلو منطقة من عدد منهم، رغم اختلاف مستواهم ومكانته، لقد وجدت مناطق عرفت بمستواها العلمي الراقي مثل قرية أولاد جلال التي وجدت بها مدرسة للطلبة المهاجرين يطلق عليهم "الغرباء مهاجرين"[73]، وعند الحديث عن عين ماضي يقول "وعين الماضي أصلها كلهم طلبة،[وجلهم طلبة] يقرؤون خليلا"[74].

غير أنه وجدت مناطق تراجع دورها العلمي لأسباب مختلفة، ومنها بسكرة التي يقول عنها الدرعي "ولما دخلت مسجدها لم أجد قارئا ولا مدرسا سوى رجل واحد ممتد يقرأ لوحه وهو ملقى أمامه [يقرؤه] على غير أدب ولا استقامة"، كما أنه لم يصادف بالمدينة سوى رجلا واحدا يقرأ صحيح البخاري[75]. ونفس الظاهرة يذكرها الورثلاني في رحلته حين يؤكد أنّ الحكام كانوا لا يولون مناصب القضاء والإفتاء إلاّ لمن يدفع الرشوة، فيذكر حينما يتحدث عن بسكرة "وقد سمعت أنّ القاضي والمفتي فيها لا يتولى إلاّ بإعطاء لهم وارتشاء لديهم (أي الأتراك) وكذا في غيرها من عمالة الجزائر"[76].

يتحدث العياشي عن إمام بورقلة ألقى خطبة فأكثر من الأخطاء حتى ظن الجميع أن صلاتهم وراءه باطلة[77]، أما عن أهل توات فيقول "ولم نلق هناك أحدا ممن ينسب إلى ولاية أو صلاح ولا من أهل العلم أو الفلاح، وغالب أهلها عوام أهل تجارة"[78].

4- الفرق الدينية: كما تعطينا المصادر معلومات عن الفرق المذاهب الدينية التي وجدت بالمنطقة فعلى سبيل المثال وجد بورقلة أتباع المذهب المالكي والإباضي[79].

وخلاصة القول، فإن هذه الرحلات تشكل مصدرا هاما لأخذ نظرة شاملة عن صحراء الجزائر خلال الفترة الحديثة، ومما يزيد في أهميتها أن أصحابها لم يكونوا من سكان هذه المناطق وإنما عابري سبيل، وهذا دفعهم إلى تسجيل كل أمر غريب والذي قد يبدو عاديا لأهل المنطقة. إن صحراء الجزائر آنذاك لم تكن مناطق ركود وتخلف كما قد تبرزه بعض المصادر الغربية، وإنما كانت تعج بالحركة في شتى ميادين الحياة، كما كانت بها حواضر شهدت ازدهارا اقتصاديا وعلميا، فكانت أسواقها تعج بمختلف السلع والبضائع المحلية والمستوردة. غير أن ذلك لا ينفي وجود بعض المظاهر السلبية التي أثرت وعرقلت هذه الحركية كظاهرة اللصوصية وقطاع الطرق التي أرقت مواكب الحجاج وأطنب الرحالة في الحديث عنها، يضاف إليها الصراع السياسي بين قبائل المنطقة والعثمانيين والذي أدى إلى تراجع دور بعض الحواضر كبسكرة.

الهوامش:

1- الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي، **الرحلة الحجازية**، ضبط وتعليق لمدبر عبد العالي، دار الأمان للنشر والتوزيع ، الرباط، الطبعة الأولى، 2011، ص 85.

2- العياشي عبد الله بن محمد، **الرحلة العياشية 1661- 1663**، تحقيق وتقديم سعيد الفاضلي وسليمان القريشي،، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2006، ص ص 542- 543.

3- الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي، **المصدر السابق**، ص 86.

4- أبو العباس احمد بن محمد بن ناصر الدرعي ، **الرحلة الناصرية**، تحقيق ملوكي عبد الحفيظ، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، 2011، ص158.

5- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ص 539.

6- واحة في منطقة بوسمغون بالبيض، بها أراض خصبة وكان يلتقي بها ركب الحج الفاسي والسجلماسي لإكمال الطريق إلى بلاد الحرمين، ينظر: بوسليم صالح وبن قايد عمر،"الأضرحة والمزارات في الجزائر العثمانية من خلال الرحلات المغربية"، **مجلة الباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية**، جامعة ورقلة، العدد 21، ديسمبر 2015، الهامش 34، ص 275.

7- الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي، **المصدر السابق**، ص ص 83- 84.

8- أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، **المصدر السابق**، ص 145.

9- **نفسه**، ص 127.

10- **نفس المصدر والصفحة**.

11- **المصدر نفسه**، ص 131.

12- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ص ص 118- 119.

13- **المصدر نفسه**، ص 123.

14- ابن حموش، مصطفى أحمد، **المدينة والسلطة في الإسلام "نموذج الجزائر في العهد العثماني"**، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، ودار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1999، ص 141.

15- الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي، **المصدر السابق**، ص 86.

16- الورثلاني الحسين بن محمد، **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**، تحقيق محمد بن شنب، المجلد الأول، الطبعة الأولى، مكبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص 137. وهو يوجد على الحدود الجزائرية- التونسية.

17- الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي، **المصدر السابق**، ص 84.

18- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ج 1، ص 115.

19- اعتمادا على مخطط يمثل قصبة ورقلة يعود إلى عام 1850، أمكننا تحديد أسماء الأبواب كالآتي: باب السلطان، باب حميد، باب خريج، باب الجديد، باب عزي، باب عمار، باب الربيع.

20- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ج 1، ص 122.

21- الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي، **المصدر السابق**، ص 84.

22- **نفسه**، ص 85.

23- أبو العباس احمد بن محمد بن ناصر الدرعي، **المصدر السابق**، ص 132.

24- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ج2، ص 540.

25- أبو العباس احمد بن محمد بن ناصر الدرعي، **المصدر السابق**، ص 139.

26- **نفس المصدر والصفحة**.

27- الورثلاني، **المصدر السابق**، ص 142.

28- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ج 1، ص ص 112- 113.

29- الدرياس –أو بونافع- هي نبتة صحراوية خضراء لها أزهار صفراء تحتوي أغصانها الطرية على حليب أبيض و هي شديدة السمية قاتلة للحيوان و الإنسان إذا أكل منها تسبب إسهالا شديدا.

30- أبو العباس احمد بن محمد بن ناصر الدرعي، **المصدر السابق**، ص 132.

31- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ج 1، ص 113.

32- أبو العباس احمد بن محمد بن ناصر الدرعي، **المصدر السابق**، ص 134.

33- **نفسه**، ص 113.

34. أبو العباس احمد بن محمد بن ناصر الدرعي، **المصدر السابق**، ص 130.

35- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ج 2، ص ص 546- 547.

36- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ج 1، ص 79.

37- أبو العباس احمد بن محمد بن ناصر الدرعي، **المصدر السابق**، ص 128.

38- **المصدر نفسه**، ص 132.

39- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ج2، ص 540.

40- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ج 1، ص 114.

41- نفسه، ص 79.

42- الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي، **المصدر السابق**، ص 83.

43- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ج 1، ص 79.

44- **نفسه**، ص 118.

45- **نفسه**، ص 60.

46- **نفسه**، ص 112.

47- الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي، **المصدر السابق**، ص 84.

48- أبو العباس احمد بن محمد بن ناصر الدرعي، **المصدر السابق**، ص 145.

49- **نفسه**، ص ص 127- 128.

50- الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي، **المصدر السابق**، ص 76.

51- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ج 1، ص ص 115- 117 و119.

52- **نفسه**، ص 120.

53- أبو العباس احمد بن محمد بن ناصر الدرعي، **المصدر السابق**، ص 127.

54- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ج 2، ص ص 539.

55- **نفسه**، ص 552.

56- **نفسه**، ص 522.

57- **نفسه**، ج1، ص 118.

58- **نفسه**، ص 123.

59- **نفسه**، ج 2، ص 523.

60- **نفسه**، ج 1، ص 118.

61- **نفسه**، ص 120.

62- الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي، **المصدر السابق**، ص ص 85- 86.

63- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ج 2، ص ص 539- 540.

64- **نفسه**، ج 1، ص 107.

65- الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي، **المصدر السابق**، ص 129.

66- أبو العباس احمد بن محمد بن ناصر الدرعي، **المصدر السابق**، ص 128.

67- الحضيكي أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي، **المصدر السابق**، ص 86.

68- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ج 2، ص 539.

ولمزيد من التوضيح حول أولياء الصحراء الجزائرية ينظر: بوسليم صالح، بن قايد عمر، **المرجع السابق**، ص ص 267- 278.

69- أبو العباس احمد بن محمد بن ناصر الدرعي، **المصدر السابق**، ص 133.

70- **نفسه**، ص 158.

71- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ج 2، ص 542.

72- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ج 1، ص 112.

73- أبو العباس احمد بن محمد بن ناصر الدرعي، **المصدر السابق**، ص 138.

74- **نفسه**، ص 130.

75- أبو العباس احمد بن محمد بن ناصر الدرعي، **المصدر السابق**، ص ص 143- 144.

76- الورثلاني، **المصدر السابق**، ص 142.

77- العياشي عبد الله بن محمد، **المصدر السابق**، ج 1، ص ص 114- 115.

78- **نفسه**، ص 79.

79- **نفسه**، ص 114.